البلبلة اللغوية في ارض بابل بين الفكرين العربي والغربي
دراسة لغوية تاريخية

أ.م.د هدى صلاح رشيد
جامعة تكريت – العراق

أ.م.د ادهام حسن فرحان
جامعة تكريت – العراق

الملخص

لقد حاولنا في هذا البحث عرض المسألة التي تفسر التعددية اللغوية والتي عرفها العالم القديم تحت مسمى (البلبلة اللغوية) وفق ما ورد ذكرها في العهد القديم _ سفر التكوين، وما ورد في الاسطورة السومرية ، ومن ثم دراستها دراسة علمية رصينة، اعتمادا على مصادر ومراجع ذات صلة بالموضوع، فأخذنا بالحسبان عرض الموضوع على الفكرين العربي والغربي على حد سواء. وبناء على ما تقدم تم تناول البحث على النحو الاتي:

بابل والتعدد اللغوي، البلبلة في الفكر العربي، البلبلة في الفكر الغربي، نقد ورأي وتوجيه . وقد مكننا ذلك من الوصول الى أنَّ قصة برج بابل وتعدد لغات البشر حسب ما اورده سفر التكوين ، ماهي إلا قصة اسطورية مستوحاة من اساطير الشعوب القديمة التي تُرجع اختلاف لغات البشر الى تدخل الإله .

الكلمات المفتاحية: البلبلة اللغوية، أرض بابل، الفكر العربي، الفكر الغربي، برج بابل، قصة أسطورية

Abstract :

In this research ,have been endeavor to put Forward to discussed the idea that explained the manifold of Languages ,which known by the ancient word as "the confusion of language" that mentioned in the old Testament ,and mentioned in the Sumerian Legend , then have been Studied Zit Scientific study and using the related reference to this subject ,in the conception of Arabs and Occident. There fore to the above the subject has the following :

Babylon and the manifold language, The confusion in the Arabic conception, The confusion in the Occident conception, Criticism and Opinion and Leading. This study Leading to that the Babylon castle and manifold of languages as mention in old testament is only Lang end story take from old popular legends that had been returned the different of human language to the lords.

Keywords: linguistic confusion, Babylonian land, Arab thought, Western thought, Tower of Babel, mythical story

المقدمة:

إنَّ من القضايا المهمة التي تثار عند دراسة تاريخ الجنس البشري ، قضية أو اشكالية اللغة ، فمما لاشك فيه أنَّ البشرية ترجع الى أصل واحد ، وهو الإنسان الأول آدم وحواء ، ولاشك أيضا أنه كانت تجمعهم وحدة اللغة .

وهنا يمكن لنا أن نتساءل عن اللغة المشتركة وعن التعدد اللغوي الذي يشهده العالم ، ما سبب هذه التعددية ، وما أصلها؟ وعن زمان ومكان حدوثها ؟مسلطين الضوء على التفاسير الأيديولوجية التي قدّمتها الثقافة الانسانية لهذه التعددية .

لقد حاولنا في هذا البحث عرض المسألة التي تفسر التعددية اللغوية والتي عرفها العالم القديم تحت مسمى (البلبلة اللغوية) وفق ما ورد ذكرها في العهد القديم _ سفر التكوين ، وما ورد في الاسطورة السومرية ، ومن ثم دراستها دراسة علمية رصينة ،اعتمادا على مصادر ومراجع ذات صلة بالموضوع ، فأخذنا بالحسبان عرض الموضوع على الفكرين العربي والغربي على حد سواء.

وبناء على ما تقدم تم تناول البحث على النحو الاتي:

ـ بابل والتعدد اللغوي .

ـ البلبلة في الفكر العربي.

ـ البلبلة في الفكر الغربي.

ـ نقد ورأي وتوجيه .

وقد مكننا ذلك من الوصول الى أنَّ قصة برج بابل وتعدد لغات البشر حسب ما اورده سفر التكوين ، ماهي إلا قصة اسطورية مستوحاة من اساطير الشعوب القديمة التي تُرجع اختلاف لغات البشر الى تدخل الإله .

بابل والتعدد اللغوي : قامت مدينة بابل على الضفة اليسرى للفرات ، ولم تحظ أية مدينة ـ في العالم القديم ـ بما حظيت به بابل من شهرة وبريق في أعين الناس عامة ، وسكان بلاد

الرافدين خاصة ، فهي مركز تجاري ، اقتصادي ، ديني ، حتى عدت لأجل ذلك قبلة العالم القديم ، وحصنا منيعا ومقرا للحكم آنذاك [1].

إنَّ الاهمية التي حظيت بها بابل على مر العصور جعلت منها المدينة الأولى التي تقصدها الأنظار وتحدق بها الأخطار ، كما أنها أصبحت محور الأساطير والقصص القديمة .

أعظم ما في هذه المدينة برجها الذي كان حديث أغلب المؤرخين العرب والغرب، وجاء ذكره في الاساطير البابلية القديمة ،كما ارتبط ذكره في سفر التكوين بحادثة البلبلة اللغوية(التعدد اللغوي).

إذ أنَّ معظم العالم القديم ـ إن لم يكن كله ـ انتج اساطير تتعلق بتفسير اختلاف لغات البشر على الرغم من مرجعهم الى اصل واحد ، فذكروا انهم كانوا يجتمعون على لغة واحدة ثم تفرقوا بعد ذلك ، وفق ما نصت عليه اسطورة البلبلة اللغوية الواردة في الكتابات القديمة التي قيل إنَّ اسم المدينة ـ بابل ـ مستوحى من تلك الحادثة التي وقعت فيها.

وقبل الدخول في نقاش مسألة البلبلة اللغوية ، لابدّ من عرض النصوص التي تناولت هذه المسألة ، لذا سنعرض هنا نصين هما النص التوراتي المتمثل بما ورد في سفر التكوين ، والنص الوارد في النقوش البابلية القديمة .

فقد ورد النص في سفر التكوين[2] على النحو الآتي :

((كانت الأرض كلها لساناً واحداً ، ولغة واحدة ، وحدث في ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار ،وسكنوا هناك ، وقال بعضهم لبعض : "هَلمّ نصنع لبناً ونشويه شيآ "، فكان لهم اللبن مكان الحجر ، وكان لهم الحمر مكان الطين ، وقالوا : " هَلمّ نبن لأنفسنا مدينة وبروجاً رأسه بالسماء، ونضع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض " ، فنزل الربّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما ، وقال الربّ :" هوذا شعب واحد ، ولسان واحد لجميعهم ،وهذا ابتداؤهم بالعمل ـ والآن لا يمتنع عليهم كلُّ ما ينوون أن يعملوه ، هَلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض" ، فبددهم الربّ من

هناك على وجه كلّ الأرض ، فكفوا عن بنيان المدينة ، لذلك دُعي اسمها " بابل " لأنَّ الربَّ هناك بلبل لسان كل الأرض ، ومن هناك بددهم الربَّ على وجه كل الأرض)).

أمّا الاساطير البابلية فإنها تروي قصة البلبلة اللغوية ، على النحو الاتي:

((إنَّ الإله أنكي الذي كان غاضباً بسبب غيرته من سلطة إنليل المتعاظمة ، والتي شملت الكون بأجمعه قرر ـ انكي ـ تخريب إمبراطورية إنليل الآمنة))[3] .

فأثار الأزمات والحروب بين الشعوب ، كما نُسب إلى أنكي تهمة بلبلة الألسن ، ويوضح النص الآتي ذلك : ((أنكي ، سيّد الكثرة ، ذو الأوامر الثابتة أ إله الحكمة ، الذي يتفحص الأرض ، سيد الآلهة ، إله أريدوا ، المتميز بالحكمة ، بدّل الكلمات من أفواههم ، وأدخل الاختلاف ، الى لغات البشر ، بعد أن كانت لغتهم واحدة))[4] .

إنَّ الاختلاف الحاصل بين الروايتين يطرح امامنا تساؤلات عدّة تتعلق بموضوع الحادثة ، والوجهة التي اتجهتها في تفسير سبب حدوث التعدد اللغوي.

ففي النص التوراتي برزت عِدّة امور ، منها :

1. فرضية الأصل الواحد للغات .
2. وصف طريقة معينة للبناء ، وهذه الطريقة تشير الى الأبنية الشاهقة التي اعتاد البابليون بناءها ، وتكون على شكل ابراج هرمية متعددة الطوابق ، مصنوعة من الآجر والقار عُرفت بالزقورة[5] .
3. إنَّها تصور مجتمع متجانس ومنظم نسبياً .
4. فكرة العقاب الإلهي .
5. ارتباط اسم المدينة (بابل) بحادث تفرق الألسن .

أمّا الرواية البابلية فقد صورت لنا الآتي :

1.فرضية الأصل الواحد للغات.

2. صراعا بين الآلهة ، فتتعارض قوتان ليكون التعدد اللغوي واحداً من النتائج المترتبة على هذا الصراع الذي تعاظم أمره فامتد الى لغة البشر ، فتعددت اللغات بعد ان كانت واحدة .

وعلى كل حال فالأسطورتان تتعارضان في سرد الأحداث التي أدت الى البلبلة اللغوية وتعدد لغات البشر ، ولكنهما تتفقان على جعل تعدد الالسن لعنة وعقوبة نتيجة لصراح حاصل أو غضب واقع.

وبعد هذا العرض لا بد من أن نعرج الى عرض الحادثة على الفكر العربي والفكر الغربي لبيان رأي الفريقين ، وكيف تناول كل منهما هذه الاسطورة ، وعلى النحو الآتي :

البلبلة اللغوية في الفكر العربي :

عرف العرب مسألة التعدد اللغوي منذ القدم ، فقد آمنو بأنَّ الله جعل لكل أمة من الأمم لساناً خاصاً بهم [6]، والمراد بالألسن هنا ، اللغات المنتشرة في الأرض .

وقد تناول العلماء العرب بحث هذه المسألة ، فذهب بعضهم الى القول أنَّ اللغة كانت واحدة ، ثم تفرقت بعد ذلك في زمن ما ، ولم يشر أحد منهم إلى السبب الذي أدى الى تفرق الألسن ، يقول المسعودي في إشارة إلى تفرق الألسن التي أرجعها إلى حادثة الطوفان زمانا ، وإلى أرض بابل مكانا، فقال:((كان الناس بعد الطوفان مجتمعين في مكان واحد ، بأرض بابل ، ولغتهم السريانية ، ثم تفرقوا))[7] .

كما جاء ذكر حادثة تفرق الألسن عند ابن النديم ، الذي كان مطّلعا على ما جاء في التوراة ، فقال: ((ذكر تيادورس المفسر في تفسير للسفر الأول من التوراة ، إنَّ الله تبارك وتعالى خاطب آدم باللسان النبطي ، وهو أفصح اللسان السرياني ، وبه كان يتكلم أهل بابل ، فلما بلبل الله الألسنة تفرقت الأمم إلى الاصقاع والمواضع))[8].

ومهما تكن دقة هذه الرواية التي نقلها ابن النديم ، فإنها تحمل إشارة واضحة الى معرفة ابن النديم بالحادثة وان اكتفى بعرضها دون محاولة مناقشتها.

فيما يتجه ابن جني اتجاها اخر ، فيرى أنَّ اللغات لا ترجع إلى لغة واحدة ، بل هي لغات ،و ((أنَّ الله سبحانه علَّم آدم اسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات : العربية ، و الفارسية ، و السريانية ، و العبرانية ، و الرومية ، و غير ذلك من سائر اللغات ، فكان آدم

وولده يتكلمون بها ، ثم إنّ ولده تفرقوا في الدنيا ، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات ، فغلبت عليه ، واضمحل عنه ما سواها ، لبعد عهدهم بها))[9] .

وهذا الرأي تبناه ابن حزم الظاهري ،فعد اختلاف اللغات داخل اللغة الواحدة بمثابة الترادف ، فقال:((وقد يمكن أن يكون الله تعالى وقف آدم عليه السلام على جميع اللغات التي ينطق بها الناس كلهم الآن ، ولعلها كانت حينئذ لغة واحده مترادفه الاسماء على المسميات ، ثم صارت لغات كثيرة ، إذ توزعها بنوه بعد ذلك ، وهذا هو الأظهر عندنا والأقرب ، إلا أننا لا نقطع على هذا ، كما نقطع على أنه لا بدّ من لغة واحدة وقف الله تعالى عليها))[10].

فهو هنا يبدو مترددا بين الرأيين ،أي بين مسألة الإقرار بأن التعدد اللغوي هو الأصل ، والقول بالأصل الواحد للغات، لكنه يستدرك على كلامه ، فيقول : ((ولكن هذا هو الأغلب عندنا ، نعني أنَّ الله تعالى وقف على جميع هذه اللغات المنطوق بها))[11] .

إنَّ ما ذهب إليه كل من ابن جني وابن حزم ، له ما يؤيده ، وخاصة إذا ما علمنا أنَّ تفرق الألسن يتأثر بعاملي الزمان والمكان ، فتكتسب كل لغة جرسا ونمطا خاصا بها بفعل تأثير العاملين المذكورين.

هذا ويمضي الآمدي مؤيدا لمن سبقه في إقرار مسألة التعدد اللغوي في أصل الخليقة ، معتمدا في ذلك على ما جاء في قوله تعالى :چ ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ چ الروم: ٢٢ ، فيقول في تفسير ذلك : ((فإنَّه لا يجوز أن يكون المراد اختلاف تأليفات الألسن بالذكر ، فبقى أن يكون المراد اختلاف اللغات)) [12].

ويطالعنا في هذا الصدد ابن خلدون ، فيعرض لحادثة البلبلة كما ورد ذكرها في التوراة ، فيقول مستنكرا الخبر: ((أصاب النمرود وقومه على عهد سيدنا ابراهيم عليه السلام ، ما اصاب الصرح ، وكانت البلبلة ، وهي المشهورة ، وقد وقع ذكرها في التوراة ، ولا اعرف معناها ، والقول بأنَّ الناس اجمعين كانوا على لغة واحدة فباتوا عليها ثم اصبحوا وقد افترقت لغاتهم ، قول بعيد في العادة))[13]. فهو هنا يرجع ينكر القصة جملة وتفصيلا.

ومما تقدم يمكن القول إنَّ العلماء العرب يجتمعون على الإيمان بالتعدد اللغوي وأنه آية من الآيات الدالة على عظمة الله وهي بالتالي طبيعة فطر الله الناس عليها وليست نتاجا للعقوبة الالهية.

البلبلة اللغوية في الفكر الغربي :

أمّا الفكر الغربي ، فإنهم يجمعون على مسألة تفرق الألسن ،وتعدد اللغات بعد أن كانت واحدة ، مستندين في ذلك على ما جاء في الكتاب المقدس ـ سفر التكوين ،وهذا ما ذكره علماء الغرب (الفلاسفة والمؤرخين واللغويين) ، يقول المؤرخ اليوناني يولهيستر :((إنَّ الناس كانوا يتكلمون بلغة واحدة وفكروا في إقامة بناء يصل الى السماء ، فبلبلت الآلهة ألسنتهم))[14]، وينقل المؤرخ أبيدينوس خبراً عن الآشوريين ، فيقول:((إنَّ الناس قديما فكروا في بناء برج يتحدون به مع الآلهة ، فأحبطت الآلهة مسعاهم ، وهدمت بناءهم ، وبلبلة ألسنتهم ، وأنَّ بابل قامت في المكان الذي وقع فيه))[15]. وهذا ما يؤكده أفلاطون ، فيقول :((إنَّ الناس كانوا يتكلمون بلسان واحد ، ولكن جوبيتر بلبل ألسنتهم لأنهم كانوا يطمعون في الخلود))[16].

ولعل هذا التسليم بصحة ما ورد في الكتاب المقدس أوقع بعضهم في خطأ تأريخي ، وهذا ما وجدناه عند القس وليم مارش ، حين قال: ((وقصص بابل عند القدماء الوثنيين موافقة لنبأ التوراة ، فإن فيها أنّ ذلك البرج أريد أن يكون رأسه في السماء ، وأن الذين أخطؤوا وأثموا ، وظهر فيها أنَّ الكاتب سر بخيبتهم ، وأنَّ الآلهة كانت تهدم ليلا ما يبنونه نهاراً ، فبلبل أخيراً بعل أبو الآلهة السنتهم))[17]. والقس هنا وقع في خطأ تاريخي عندما ذكر أنَّ (قصص بابل عند الوثنيين موافقه لنبأ التوراة) ، والعكس هو الصحيح ، اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار مسألة القِدم، لأنَّ حضارة بابل سبقت نزول التوراة ، وربما أنه كان مضطراً لذلك لئلا يقع في قضية اقتباس التوراة من اساطير بابل. ولكن هذا التسليم لم يمنع عدد منهم من الطعن بما ورد في هذه الرواية ، لذا يصفها جيمس جورج فريزر "بالأسطورة" قائلاً: ((إنَّ مشهد هذه الاسطورة قد صوّر في أرض بابل ، ذلك أنَّ بلبل هي الصيغة العبرية الوحيدة لاسم هذه

المدينة ... وربما كان الشارحون على حق في إرجاع دافع الحكاية الأصلي الى التأثير العميق لهذه المدينة الكبيرة على عقول البدو الساميين السذّج . فهؤلاء الذين كانوا قد اعتادوا الوحدة وسكن الصحراء ، قد أذهلهم ضجيج الشوارع والأسواق ، وابهرتهم الألوان المتغيرة في الزحام المصطخب ، كما أدهشوا لضجيج الأصوات التي تنطلق من ألسنة غريبة ، وذعروا لرؤية المباني الشاهقة ، وبصفة خاصة تلك المعابد ذات الارتفاع الشاهق ، وهي تعلو طابقاً فوق الآخر حتى كانت قممها البرّاقة المبنية من الطوب المصقول وكأنها تمس صفحة السماء الزرقاء))[18]. فهو ينظر الى حادثة (البلبلة اللغوية) على أنَّها اسطورة من صنع الخيال ، ثم يضيف قائلا: ((وليس بعيدا بعد هذا أن يتصور ساكنوا الخيام أنّ هؤلاء الذين تسلقوا هذا البرج عن طريق انحداراته الملتفة حتى كانوا يبدون في النهاية كالذرة المتحركة على قمة البرج ، أنهم كانوا اقتربوا من الآلهة بحق))[19]. ويرى إمبرتوا ايكو رأيا مقاربا لما تقدم فيقول : ((فبينما نجد سفر التكوين ، دراماياً وغنياً من حيث رموزه وحججه ذلك يكمن في ثراء التصورات والتمثيلات التي أوحى بها البرج على مدى القرون ، نجد أنَّ تلميحات سفر التكوين كلها منحولة ومحرّفه عمداً ، وتكشف بالتأكيد عن مسرحة ما))[20].

ثم يعرض عدَّة تساؤلات على شكل افتراضات تهكمية تبين زيف هذه الرواية ، وأنّها عبارة عن اسطورة لا صحة لها، فيقول: ((لكن إذا كان من السهل تأويل سفر التكوين ـ حيث كانت هناك في البدء لغة واحدة ثم أصبحت 70 لغة أو أكثر.... فإنَّ سفر التكوين بالمقابل ، يحتوي على افتراضات مذهلة ، فلئن كانت اللغات قد تباينت بعد نوح فلماذا لم يكتب لها التباين ، كذلك من قبل ؟ هنا تكمن إحدى الثغرات في اسطورة بابل))[21].ويضيف قائلا: ((فإذا كانت اللغات لم تتباين بعد العقاب ، وإنما تباينت تبعاً لتوجه طبيعي وعادي ، فلماذا إذن تم تأويل البلبلة اللغوية على أنها نقمة ؟؟))[22].

وهذا ما دعا لويس جان كالفي إلى أن يصفها بأنها اسطورة لا يجب تصديقها ، قائلاً : ((لا ريب في أنه لا ينبغي أن تُحمل الاساطير على محمل الجد ، ولو كانت اساطير دينية ، غير أنه لا ينبغي كذلك أن ننسى أنَّ مثل هذه الاساطير، كمثل الافكار الجاهزة ، تحكمنا وتسم بميسمها عشرات الاجيال من البشر))[23] .

نقد ورأي وتوجيه:

بعد هذا العرض الذي قدمناه لنص اسطورة التعدد اللغوي وبلبلة الألسن عند بابل ، لا بدّ من أن تكون لنا وقفة تحليلية أمام هذه الرواية ، فالنص التوراتي يطرح أكثر من تساؤل ، وقصة برج بابل ذات الآيات التسع الأولى في سفر التكوين يلفها الغموض وتحيطها هالة ضبابية منذ بدايتها حتى نهايتها ، وهدفها في النهاية هو محاولة جعل التعدد اللغوي نتاجاً لعقوبة ، أنَّ هذا الغموض يأتي من جهات مختلفة يمكن أن نوضح هنا أهم جوانبه:

1. انعدام الرابط المنطقي بين أحداث النص ، فهو عبارة عن خبر عام ينقصه الربط المنطقي بين اجزاءه ، ومن يمعن في تأمله يلحظ أنه عبارة عن حوادث مشتتة.

2. جاء في سفر التكوين انّ هؤلاء القوم قد ارتحلوا شرقاً إلى أرض اسمها شنعار ، ثم نراه يفصل في طبيعة تلك البلاد ، ويذكر أنَّ هؤلاء المستوطنين الجدد أرادوا أن يكون لهم مستقرا في الارض التي رحلوا إليها ، فأخذوا يعملون على بناء الأبراج ، وهذا بحد ذاته يدعو إلى التساؤل : كيف لشعب مرتحل أن يتقمص هوية سكان البلاد الأصليين ويتحدث بلسانهم وكأنه جزء منهم ؟

وهنا تبرز مسألة أخرى ، وهي المواد المستعملة في البناء ، فقد استعملوا مواداً للبناء متكونة من (اللبن والحمر) بدلاً عن (الحجر والطين) ومن المعلوم أنَّ أرض بابل هي ارض سهل رسوبي وبالتالي فإنّ السكان الجدد سوف يستعملون المواد الجديدة للبناء بدلا مما اعتادوا عليه في بلادهم ، وهذا يحمل اشارة للبلاد التي ارتحلوا منها وهي بلاد صخرية في إشارة الى بلاد فلسطين .

3. يذكر النص التوراتي خطأً تاريخيا كبيراً ، وهو إنَّ هؤلاء الشعب تبددوا قبل أن يتموا بناء البرج ـ وهذا خطأ كبير ـ لأنَّ حضارة بابل كانت حضارة عريقة قوية تتميز بأبراجها العالية ، إذ اعتنى البابليون بالمظاهر العمرانية وبناء المعابد على نحو خاص ، فقد ((كانت بيوت العبادة في بابل كما في اور بالغة الفخامة أقيمت على مساحة واسعة من الأرض ... ففي بابل وحدها يوجد 53 معبداً ... وكان أكبر المعابد البابلية وأكثرها روعة وفخامة هو معبد

الإله مردوخ ، إله بابل الرئيس ، وكان يعرف هذا المعبد باسم (اساجيلا) ومعناه (البيت المرفوع الرأس) تحيط به جدران عالية ذات أبراج صغيرة ، وفي الشمال باحته الواسعة ، تقوم زقورة ، وهي ما يعرف في التاريخ برج بابل))[24] . ومن المعلوم إنَّ حادثة البلبلة ـ وفق ما جاء ذكره في نص التوراة ـ قد جرت أحداثها في المعبد الذي يقع في مدينة بلبل ، وهو المعبد الذي ((كان مخصصاً لعبادة الإله مردوخ))[25] .

ولعل البرج الذي دفع مدونو التوراة الى اختلاق القصة ، هو برج بورسيبا الذي كان مخصصا لعبادة الإله "نبو " عندما نظروا إلى شكله غير المكتمل ، فحاولوا اختلاق اسطورة تفسر ذلك ، يقول جيمس فريزر : ((ونحن نعلم من مخطوط عثر عليه في هذا المكان ، أنَّ الملك البابلي القديم الذي بدأ بناء برج المعبد عند بوسيبا ، تركه ناقصاً بدون قمة ، وربما كان منظر هذا الصرح الهائل في شكله غير المكتمل هو الدافع وراء نشأة برج بابل))[26] .

ولم يذكر التأريخ أنَّ بابل مدينة تبدد شعبها قبل أن يتموا بناءها.

4. جاء في النص التوراتي ذكر لاسم الإله الذي بلبل الألسن وفرقها ، وقد كان اسمه " يهوه" ، ومن المعلوم أنَّ بلاد سومر لم تعرف الهة بهذا الاسم ، ولم يأتي ذكر هذا الاله في النقوش السومرية ، ولا في المصادر التي تولت الحديث عن العبادات في بلاد سومر[27] .

و " يهوه " هو إله النصوص التوراتية وهذا ما توصل إليه الباحثين ، يقول د. عبد المجيد همو : ((اسم يهوه اسم إله قبلي خاص ، وليس إلهاً عالمياً ، ولم يستطيعوا أن يرتفعوا ـ اليهود ـ به إلى مستوى العالمية))[28] . وهذا ما أكدته دائرة المعارف الكتابية ، وجاء تحت عنوان " يهوه " : ((يهوه : هذا هو اسم العلم الشخصي لإله إسرائيل كما كان كموش إله موآب ، و داجوان إله الفلسطينيين))[29].

ولا يعني أنَّ عبدة " يهوه " آمنوا بأنه هو الاله الواحد ، وإنَّما على العكس من ذلك ، كانوا يعتقدون بوجود آلهة غيره ، وهذا الاله خاصاً بهم ، يقول د. جمال الدين الشرقاوي : ((ولمعلومية القارئ المثقف ، فإنَّ عُبّاد يهوه لا يؤمنون به كإله واحد أحد لا إله غيره ، وإنما آمنو به إلهاً خاصاً بهم ، دون سائر الناس ، وأنَّه يوجد آلهة غيره كثيرة تعبدها شعوب العالم))[30] .

5. في النص التوراتي خطأ لغوي في تفسير اسم مدينة بابل، الذي ارتبط ـ حسب النص المذكور ـ بحادثة البلبلة اللغوية ، حتى أنَّهم ادعوا أنها سميت بهذا الاسم لأنّها كانت المكان الذي تفرقت فيه الألسن وتشعبت ، فقد قيل في تأثيل الاسم "بابل" هو من بلبلة الالسن ، لذلك دُعي اسمها بابل ، لأنَّ الإله هناك بلبل لسان كل أهل الأرض[31] . وفي الحقيقة أنَّ مثل هذه التأثيلات لا يعوّل عليها كثيراً ، لأنها جاءت نتيجة للمح التوافق اللغوي القائم بين ، اسم المدينة " بابل " والفعل " بلل " في اللغة العبرية والذي يعني (شوش أو خلط) ، فقادهم ذلك الى أن يفسروا ((اسم بابل على أنه مشتق من الفعل بلل الذي يفيد في العبرية معنى البلبلة))[32]. إنَّ هذا الربط المختلق بين " بلبل " والفعل العبري "بلل" ، يحتاج الى إدامة النظر ومراجعة الفكر ، ويمكن اثبات بطلان هذا الزعم من خلال الحقائق الاتية :

أ. جاء في دائرة المعارف الكتابية:((نعرف من سفر التكوين أنه قد دُعي اسمها "بابل" ،لأن الربّ هناك بلبل لسان كل الأرض ، فبابل تعني تشويش أو بلبلة ، وهذا مما لاشك فيه بُني على أساس اللفظة العبرية بلل بمعنى يشوش أو يخلط ، ولكن النقوش المسمارية العديدة تدلنا على أنَّ بابل ليس من " بالالو " بمعنى يخلط ، حيث إنه في البابلية يكتب الاسم " باب ـ إيلي " أو " إيلاني " ، أي باب الله أو باب الآلهة))[33].

ب. يقول E.A.Wallis Bude :((بابل أو بابليم في الأشورية تعني " باب الله " ، وقد أثبت النص عموماً أنها تعني " بلبل " ، لكن النقوش تثبت أنَّ هذا غير صحيح))[34].

جـ . يرى جيمس جورج فريزر أنَّ مسألة ((كون الكلمة . بابل ـ هي الصيغة الشائعة المستخلصة من الفعل بلل (بلبل الآرامية) بمعنى بابل ، فهذا خطأ))[35]، ويحتكم الى اللغة البابلية في اثبات ما توصل إليه ، فيقول : ((إنَّ العلاقة اللغوية بين أمم بابل وبين بلبلة الألسن ما هي إلا من الخيال الشعبي ، إذ أنَّ الثابت علمياً أنَّ كلمة " بابل " أصلها في اللغة البابلية نفسها " باب ـ إيلو " أو " باب إل "))[36].

د. وهذا ما ذهب إليه كمال الصليبي محتكماً الى الجانب اللغوي الاشتقاقي ، فيقول: ((ولا يخفى على أحد أنَّ اسم مدينة بابل التاريخية (باللغة الاكاديمية باب ء يلي ، أي بب ءل) ،

يعني بكل بساطة " باب الله " ، واذا كانت هناك مدينة تحمل اسماً مشتقاً من الجذر بلل ، فلا بدَّ أن يكون اسم هذه المدينة " بلال " وليس بابل))[37].

هـ . عدَّ لويس جان كالفي ذلك تلاعباً لفظياً ، فقال في معرض حديثه عن النص التوراتي الذي ربط بين اسم المدينة والفعل "ببل" في اللغة العبرية : ((يستند هذا المقطع إلى تلاعب بالألفاظ أو إلى اشتقاق زائف يجمع بين لفظ " بابل" وفعل " بلبل" (بالل بالعبرية) الذي يعني في العبرية (وَهِم والتبس عليه الأمر) ، في حين أنَّ لفظ " بابل" يرجع في حقيقة الأمر إلى (باب إيلي) الذي يعني (باب الله) الذي جاءت منه بلاد بابل))[38].

وفي الحقيقة إنَّ هذا الربط الذي ذكره النص التوراتي ، لا يعدو من أن يكون زلة تحسب على النص ، ولا سيما وإنَّ هذه المدينة قد أخذت اسمها من قبل أهلها منذ عقود سحيقة تبتعد عن زمن انشاء البرج ، وإنَّ أمر تعدد الألسن لم يكن جديداً بحسب النص السومري ، وكان قد مضى عليه (25) قرناً قبل تدوين التوراة[39].

وفضلاً عمّا تقدم فإنَّه في سفر التكوين حقيقة تنطق بزيف وبطلان ما ادعاه هؤلاء ، ولو تتبعنا النصوص الواردة في سفر التكوين تتبعاً ترتيبياً ، سوف نجد أنَّ حادثة تفرق الألسن تقع في الاصحاح الحادي عشر ، يسبقها في الاصحاح العاشر حادثة الطوفان وانتشار أولاد نوح وتفرقهم في اصقاع الأرض ، فيقول بخصوص ذرية يافث:((هؤلاء هم أبناء يافث في أرضهم ، كل بلغته ، وأسرته ، وأوطانهم خاصة))[40].

وتطرح القضية من جديد بنفس الكلمات تقريباً عند الحديث عن أبناء حام ((هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم وأممهم))[41]، وكذلك عند الحديث عن أبناء سام ((هؤلاء

بنو سام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم وأممهم))[42].

وبناء على هذه النصوص التي تخص الأنساب ، والتي تسبق قصة برج بابل من حيث الترتيب على مستوى الاصحاح ، فإن هذا يعد دليلا واضحا على أنَّ تفرق الألسن وبلبلة لغة

الجنس البشري الى لغات عِدة ، حدثت قبل بناء برج بابل ، لأنَّ واقعة البرج تقع ضمن الاصحاح الحادي عشرة ، في حين الحديث عن تفرق الألسن يقع في الإصحاح العاشر.

وأخيراً بعد هذا العرض المفصل لحادثة البلبلة اللغوية التي نسوغ لأنفسنا أن نطلق عليها اسم " اسطورة" ، هي في الواقع قصة منتحلة من التاريخ البابلي ، وكل ما فيها يشير إلى ذلك ، بل إنه يعطينا دلالة قطعية بصحة ما ذهبنا إليه وخاصة إذا ما علمنا أنَّ ((تاريخ اليهود القديم ـ الذي تضمنته التوراة ـ قد وضعه كتّاب عاشوا في بابل بعد حوادثه بمئات السنين ، واستندوا في رواياتهم عن قصص مروية تناقلتها أجيال من أسلاف اليهود الذين كانوا قد تزاوجوا مع سكان البلاد الأصليين من كنعانيين ، وحيثيين ، وبابليين ... وبالتالي خضعت تلك القصص إلى التأثيرات التي أملتها مصالح الفئات المتناحرة))[43].

فاليهود كانوا على اطلاع على الحكمة البابلية بحكم التعايش الذي كان بينهم ، لذا جاءت قصص التوراة مشابهة لنصوص بابلية ، ولا سيما اذا ما علمنا أنَّ ((اليهود قد سباهم الاشوريون و الكلديون إذ جلبهم نبوخذ نصر إلى بابل ، كما سباهم قبله سنحاريب واسرحدون ... فادخلوا الكثير من النصوص العراقية القديمة في نصوص الأسفار التوراتية بعد تحويرها وتوظيفها لما يتناسب وآراءهم الدينية))[44].

وانطلاقاً مما تقدم تصبح حادثة البلبلة اللغوية عبارة عن تفكير وتأمل لا بوصفها مثالاً لفعل كبريائي صبَّ فيه الإله غضبه ، بل بوصفها جرحاً في حاجة للاندمال بأي شكل من الأشكال على حدِّ تعبير امبرتو ايكو[45] .

ونحن نسلم بهذا الرأي المتقدم إذا ما علمنا بقصة السبي البابلي لليهود والذي عدّ تركة ثقيلة ورثها العراق ، حتى أنها مثلت جوهر العداء التاريخي اليهودي للعراق ((لأنَّ عقدة الأسر البابلي كانت ولا تزال ـ وستبقى إحدى أكبر العقد التاريخية اليهودية وأهمها في التاريخ اليهودي))[46]. لذا توصل سهيل قاشا وبعد الابحاث التي أجراها إلى أنَّ ما ورد في العهد

القديم من الكتاب المقدس مقتبس ومنتحل أخذ من آداب العراق القديم [47]. ومصداقاً لذلك يقول إدوار كبيرا : ((إنَّ ما تضمنته أسفار العهد القديم من قصص واساطير وشرائع، إنَّما يرجع أصله إلى المدونات السومرية والبابلية والاشورية ، وإنَّ اليهود اقتبسوا منها ما ينفعهم ، وحذفوا بلا هوادة كل ما لم يلق استحسانهم))[48].

وهكذا كانت الاساطير البابلية مصدر الهام ((تأثرت بها الميثولوجيا الاغريقية ، واضحت أساساً وجوهراً لها وتأصلت ثم استقامت وحدتها التكوينية ، ولعمق أثر هذه القصص والأساطير فإنها صيغت صياغة تاريخية في كثير من الكتب الدينية وبصورة خاصة العهد القديم ، فإنَّ أكثر القصص المروية في التوراة هي نفسها القصص والاساطير السومرية والبابلية))[49] إنَّ هذا التفسير للتعددية اللغوية على أساس انها نتاج الغضب الالهي ' يمكن أن يفسر على أنه عبارة عن حركة ملتوية ساخرة تغذي القصة التوراتية ، هدفها القضاء على التنوع اللغوي الذي اصبح . في الوقت الحاضر ـ أحد المنطلقات الاساسية التي نادت بها العولمة الامريكية.

الخاتمة

وختاماً ندرج هنا أهم النتائج التي تم التوصل اليها ، والتي ذكرنا قسماً كبيراً منها في طيات البحث .

1.لقد آمن العالم القديم بفكرة التعدد اللغوي ، واختلاف لغات البشر ، لذا ظهرت العديد من الاساطير والقصص التي حاولت تفسير سر ذلك التعدد ، فنشأت عن ذلك اسطورة البلبلة اللغوية.

2.اختلفت نظرة الاديان للتعدد اللغوي، ففي الوقت الذي جعل القران الكريم مسألة التعدد آية من آيات الله الدالة على قدرته، نجد التوراة يعدها نقمة وغضبا الاهياً.

3.عرف العرب مسألة التعدد اللغوي مثلما عرفها الغرب ، وان اختلف الفريقان في تفسير ذلك.

4.تبين من خلال البحث زيف الاسطورة التي ذكرت في التوراة بخصوص البلبلة اللغوية وعدم صحة ما بني عليها من نتائج.

5.تبين من خلال البحث إنَّ اسطورة البلبلة اللغوية ، هي في الواقع قصة منتحلة من التاريخ البابلي ، وكل ما فيها يشير إلى ذلك ، فاليهود كانوا على اطلاع على الحكمة البابلية بحكم التعايش الذي كان بينهم .

6.مما تقدم تصبح حادثة البلبلة اللغوية عبارة عن تفكير وتأمل لا بوصفها مثالاً لفعل كبريائي صبَّ فيه الإله غضبه ، بل بوصفها جرحاً في حاجة للاندمال بأي شكل من الأشكال

7.إن اسطورة البلبلة اللغوية يمكن أن تفسر على أنها عبارة عن حركة ملتوية ساخرة تغذي القصة التوراتية ، هدفها القضاء على التنوع اللغوي الذي اصبح . في الوقت الحاضر ـ أحد المنطلقات الاساسية التي نادت بها العولمة الامريكية.

الهوامش:

[1] ليس من غرضنا هنا الاطالة في الحديث عن تاريخ هذه المدينة ، فقد تكفلت مراجع وابحاث بالحديث عنها ، للاستزادة ينظر: بلاد ما بين النهرين :93 وما بعدها ، و الحياة اليومية في بلاد بابل و أشور : 185 وما بعدها ، و اليهود وعقدة بابل : 181 ـ 182.

[2] سفر التكوين :9.1 وقد اعتمدنا الترجمة العربية في نقل النص.

[3] ديوان الاساطير سومر وأكاد وأشور ـ الكتاب الثاني :الالهة والبشر : 365.

[4] المصدر نفسه : 365.

[5] ينظر : الحياة اليومية في بلاد بابل و أشور: 67. 68.

[6] يراجع في مسألة جهود العرب في مسألة لغات الامم والتعدد اللغوي كتاب (تاصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي عند العرب): 30–39.

[7] اخبار الزمان :80.

[8] الفهرست : 14.

[9] الخصائص : 51/1.

[10] الاحكام – ابن حزم : 35/1.

[11] المصدر نفسه 35/1.

[12] الاحكام ـ الآمدي : 74/1.

[13] تاريخ ابن خلدون : 78/2.

[14] تفسير الكتاب المقدس ـ سفر التكوين : 192.

[15] المصدر نفسه : 192.

[16] المصدر نفسه : 192.

[17] السنن القويم في تفسير اسفار العهد القديم : 73.

[18] الفولكلور في العهد القديم : 222.

[19] المصدر نفسه : 223،222.

[20] من أدم الى البلبلة اللغوية 112.

[21] من ادم الى البلبلة اللغوية :112.

[22] المصدر نفسه :112.

[23] حرب اللغات : 66.

[24] موسوعة الأديان السماوية والوضعية ـ ميثولوجيا واساطير الشعوب القديمة : 77.

[25] الفولكلور في العهد القديم : 223.

[26] المصدر نفسه : 223.

[27] ينظر : الحياة اليومية في بلاد ما بين النهرين: 452 وما بعدها.

[28] الله أم يهوه ؟ أيهما إله اليهود : 101.

[29] دائرة المعارف الكتابية : 380/1.

[30] تابوت يهوه : 61

[31] يراجع سفر التكوين : 9،7.

[32] خفايا التوراة : 79.

[33] دائرة المعارف الكتابية : 18/2.

[34] Babylonian Life and Third Edition:p19.

[35] الفولكلور في العهد القديم : 222.

[36] المصدر نفسه : 365.

[37] خفايا التوراة : 79.

[38] حرب اللغات: 63.

[39] ينظر: The Project E book of Sumerian Liturgies and psalms:76

[40] سفر التكوين ـ الاصحاح : 5/10.

[41] سفر التكوين ـ الإصحاح : 20/10.

[42] سفر التكوين ـ الإصحاح :31/10.

[43] أثر الكتابات البابلية في المدونة التوراتية: 8.

[44] المصدر نفسه: 69.

[45] من آدم الى البلبلة اللغوية : 118.

[46] اليهود وعقدة بابل : 34.

[47] ينظر: المصدر نفسه : 5

[48] كتبوا على الطين: 135.

[49] اساطير بابلية: 13.